من تاريخ الأدب المصري

أحمـــــد بن يوسف
المعروف بابن الدراية
للأستاذ محمد كرد علي

« لاحقـــة »

ليس ما نشرته « الرسالة » لي في عدد ٢١٥ هو كل ما عُرف من أخبار أحمد بن يوسف الكاتب . فقد ذكر من ترجموا له أن أباه يوسف بن ابراهيم كان من ذوي المروءات التامة والعصبيات المشهورة ، وأنه كان كاتباً مجيداً يعد من كتاب الطبقة الأولى ، وأنه ولد داية ابن المهدي ، وكاتب ابراهيم بن المهدي ورضيعه وصاحبه ، وأنه صنف كتاباً في أخباره وفي أخبار المتطببين وغير ذلك ، وأنه قدم دمشق سنة ٢٢٥ ، ولعلها كانت سنة هجرته من بغداد إلى مصر . وذكروا أسماء من روى عنهم ورووا عنه ؛ وممن روى عنهم من غير المسلمين جبرائيل بن بختيشوع الطبيب وعيسى بن حكم الطبيب

وكان يوسف بن ابراهيم من أصحاب الثروة يجري على كثيرين في القسطاط . ولما حبسه ابن طولون في « بعض داره ، وكان اعتقال الرجل في داره يؤيس من خلاصه ، فكاد ستره أن ينتهك لخوف شملة عليه » جاء جماعة من أبناء الستر إلى أحمد بن طولون وطلبوا إليه أن يقتلهم إذا كان معتزماً على قتله ، وقالوا إن لهم ثلاثين سنة ما فكروا في ابتياع شيء مما احتاجوا إليه ولا وقفوا بباب غيره . وفي الساعة التي توفي فيها يوسف بن ابراهيم بعث أحمد بن طولون أيضاً بخدم فهجموا الدار وطالبوا بكتبه « مقدرين أن يجدوا كتاباً من أحد ممن ببغداد ، فحملوا صندوقين وقبضوا على أحمد وعلى أخيه ، وساروا بهما إلى داره ، فأدخلوهما إليه وهو جالس وبين يديه رجل من أشراف الطالبيين ، فأمر بفتح أحد الصندوقين ، وأدخل خادم يده ، فوقع على دفتر جراياته على الأشراف وغيرهم ، فأخذ الدفتر بيده وتصفحه ، وكان جيد الاستخراج ، فوجد اسم الطالبي في الجراية ، فقال له وأحمد يسمع : كانت عليك جراية ليوسف بن ابراهيم . فقال له : نعم أيها الأمير ، دخلت هذه المدينة وأنا مملق ، فأجرى عليّ في كل سنة مائتي دينار ، أسوة بابن الأرقط والعقيقي وغيرهما . ثم امتلأت يداي بطول الأمير فاستغنيت منها »

هذا الوالد هو الذي أنجب احمد بن يوسف . وأنت ترى أن أحمد بن طولون كان يتخوف منه ، لمكانته واتصاله الوثيق بالبيت العباسي وربما وقع في خاطره أنه عين عليه ، في زمن كان فيه ابن طولون يرى إلى نزع يده من الخلفاء وتأسيس ملك في مصر يكون له ولعقبه على عنق الدهر .

ولذا كان ابن طولون حذراً يقظاً وقد اتخذ أساليب مهمة لأخذ الأخبار ، واتقاء عادية كل من طرأ على مصر ، وعنده أن كل غريب يجعل تحت الترقيب ، ولا سيما إن كان عراقياً أو يمت إلى السياسة بأدنى سبب .

تثقف أحمد بن يوسف ثقافة أبناء الأعيان في عصره ، فجاء كاتباً شاعراً رياضياً منجماً أو هو كما وصفوه « مجسطي إقليدسي » حسن المجالسة والعشرة تام المروءة كأبيه ، وصار له اتصال دائم بأرباب الدولة ومنهم عظماء في الأدب والكتابة والفقه والطب

في غيره من الأديان ، بل إن كل دين عندهم من هذه الوجهة في درجة واحدة ، إلا أن الاسلام تميز عن غيره بكثرة المتنقين ؛ واليابان تؤمل بهذا وجود جبهة قوية لها أمام الاشتراكية ، ورابطة متينة لبناء الوحدة المزمع إنشاؤها .

أما كون الحكومة في السنتين الأوليين لم توفق إلى تلك النظرية — أو أنها لم ترد الاعتراف بها — فذاك بحث آخر ؛ ويحتمل أن يكون لزعماء المسلمين يد في حملها على الاعتراف بنظرية نشر الدين الاسلامي لترويج تجارتها في تركيا وفي أواسط آسيا . وقد وفقت إلى ذلك وقدرت على مزاحمة الصادرات الأوربية ونالت إقبالاً كبيراً من البلاد الاسلامية كبلاد العرب والأفغان وإيران . وما دامت اليابان ترى حاجتها في الاسلام للوصول إلى تلك الأغراض فضررها سيكون بليغاً على الديانة النصرانية .

إن الاسلام يعقد في مساعدات اليابان له أماني ذهبية ، واليابان بدورها تنتهز هذه الفرصة لاشباع مطامعها السياسية والتجارية . وقريباً يظهر هل تلك الأمة حقيقة راغبة في اعتناق دين ، أو يظهر ما أخفته وراء تلك المجاملات اهـ .

« المرشد — سورابايا »

والهندسة والفلك لم تتعرض كتب التراجم لهم ، مثل علي المتطب المعروف بالديدان وقال فيه إنه كان « حسن المعرفة لكتب أفلاطون ورموزه ومبرزاً في الطب » وكان على صلة بالمهندسين واستفدنا من كلامه أنه كان لهم في بغداد موضع يجتمع فيه وجوه العلماء بالهيئة والهندسة في دار العباس بن سعيد الجوهري ترب المأمون .

ولم نعرف حقيقة الديوان الذي كان يعد من كتابه أو من رؤسائه ، فان ابن النديم وصفه في الفهرست بالمهندس المصري ، وقال إنه فسر كتاب الثمرة ، وكتاب الثمرة من تأليف بطليموس أما سائر كتبه فقد ذكر منها ياقوت في معجم الأدباء طائفة صالحة ، ومنها سيرة احمد بن طولون وسيرة ابنه خمارويه وسيرة هارون ابن أبي الجيش ، وأخبار غلمان [1] بني طولون ، وكتاب أخبار الأطباء ، وكتاب مختصر المنطق ألفه للوزير العالم الكاتب العف علي بن عيسى ، وكتاب ترجمته ، وكتاب أخبار المنجمين ، وكتاب أخبار ابراهيم بن المهدي ، وكتاب الطبيخ . وكل هذه الأسفار فقدت ، ولولا أن عثر له في الأعوام الأخيرة على كتاب « المكافأة » بل على جزء منه لغطى الزمن على فضل أحمد ونبوغه في الكتابة أيضاً . وكم من رجل سدل على صيته القناع بعد قليل من رحيله لفقد ما كتبه وقلة أنصاره ، وربّ رجل تضاعفت شهرته في مماته أكثر من حياته لاغفال حساده أمره بعد موته ولكثرة من أشادوا بعلمه وأدبه وابداعه .

وإذا كتب لأحمد بن يوسف أن تدرس حياته وأدبه دراسة أدبية ، وتهيأ لبعض المتفرغين من الباحثين أن يجمعوا طائفة من كلامه ، وهو قليل في المطبوعات التي بين الأيدي ، ولا يبعد أن يعثر له على أشياء في بعض المخطوطات — يسهل على نقاد الأدب أن يسلكوه مع سميه احمد بن يوسف الكاتب وزير المأمون في سلك واحد ، وربما يثبت لهم أن احمد بن يوسف المصري أوسع علماً من سميه البغدادي بما أصابه من الحظ العظيم من الثقافة التي تنم عليها أسماء مصنفاته فقط . وكيف لا تتأنق شهرة الكاتب البغدادي واتصاله كان بأعظم خليفة ، وكيف لا تضؤل شهرة الكاتب المصري وصلته كانت ببيت يعد في عرف السياسة يومئذ خارجاً على الخلافة ؟ وبغداد في ذلك العصر يحمل إليها كل جميل ويعد ما يحمل منها جد جميل

إن كتاب « المكافأة » بأسلوبه ورشاقة بلاغته من أبلغ ما كتب كتاب العرب في القصص ، يشبه أسلوب ابن المقفع فهو من غراره في السلاسة وعدم الكلفة . وقد نقل فيه شيئاً من القصص عن والده وعن رجال البلاط الطولوني وغيرهم وعن ابن المقفع وقال إنه « مما نقله ابن المقفع عن الفرس وتعاله العرب »

روى لي أحد أصدقائي أن حافظ إبراهيم « رحمه الله » استظهر هذا الكتاب في سنة نشره وقال لي الأستاذ عبد العزيز البشري إنه قرأه ثلاثين مرة وما ارتوى من ديباجته . لا جرم إن بلاغة أحمد بن يوسف من النوع الذي لو راهنت على أنه ليس في وسع جهابذة النقد أن يسقطوا لفظة من جملته لربحت الرهن ، وصدقك الأدباء في قولك بتفرده في أسلوبه ، وأنه بلا جدال المفرد العلم بين من أنبتهم مصر من الكتاب في الدهر الغابر

وبعد فمن عجيب ما فهمناه من حياة احمد بن يوسف أنه كان يحاذر محمد بن سليمان لما دخل مصر في سنة ٢٩٢ للقضاء على الدولة الطولونية ، وكان يستدعي « الواحد بعد الواحد من أسباب الطولونية ويستصفي ماله بالسوط وعظيم الإخافة » . وكان الطولونيون يعرفون أن هواه مع بني العباس بالطبيعة ويراقبون حركاته ، وما ندري وهو الذي جمع سيرة دولتهم ورجالها إن كانوا راضين عما كتب أم غير راضين ؟ لأن حرية القول ظاهرة في كلامه من كتاب المكافأة ، ولا شك أن سائر ما دونه من تاريخ القوم من هذا النمط . مات احمد بن يوسف سنة نيف و ٣٣٠ وقال ياقوت وأظنها ٣٤٠

وسواء صحت الرواية الأولى أو الثانية فإن الظاهر أن احمد ابن يوسف عُمّر طويلاً لأنه يروي عن رجال عرفهم في أيام احمد بن طولون ، وهذا هلك في سنة ٢٧٢ والظاهر أنه كان صاحب مزارع انتقلت إليه من أبيه ومنها ما كان على مقربة من المحلة الكبرى

محمد كرد علي

(١) في اللسان : يقال فلان غلام الناس وإن كان كهلا كقولك فلان فتى العسكر وإن كان شيخاً ، والعرب يقولون للكهل غلام نجيب وهو فاش في كلامهم . ويقصد أحمد بن يوسف بغلمان بني طولون رجالهم والقائمين بدولتهم